الفصل الثامن

النظم العسكرية

- النظم العسكرية فى عهد النبوة.
- النظم العسكرية فى عهد الخلافة.
- النظم العسكرية فى الأقاليم.

النظم العسكرية فى عهد النبوة

انبثقت النظم العسكرية الإسلامية فى عهد النبوة عن الجهاد، فقد كان الجهاد الذى فرض على المسلمين نقطة البدء لإعمال الفكر فى إقامة نظم عسكرية دفاعية وهجومية للمسلمين؛ حتى يستطيعوا أن يصمدوا أمام التحديات التى كانت تواجههم فى الداخل متمثلة فى كفار قريش وأحلافهم، وفى يهود الجزيرة العربية بما لهم من قوة حربية كبيرة، بالإضافة إلى تلك التحديات التى كان عليهم بالضرورة أن يواجهوها فى الخارج ممثلة فى القوة العسكرية الفارسية والبيزنطية.

والجهاد عند المسلمين كما قسمه ابن القيم يشتمل على أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. وجهاد الكفار والمنافقين يكون بالقلب واللسان، وهنا يبين الفقهاء أن جهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان[1].

والجهاد لا يتم إلا بالهجرة، ولا تتم الهجرة والجهاد إلا بالإيمان؛ مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [سورة البقرة]، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة التوبة].

بدأ جهاد النبى ﷺ منذ أن تلقى رسالة ربه، ولم يتوقف إلا بانتقاله إلى الرفيق الأعلى، فقد كانت حياته كلها جهادًا فى سبيل الله.

والجهاد الذى نحن بصدده هنا هو جهاد الكفار. ذلك الجهاد الذى أمر الله سبحانه وتعالى به نبيه ﷺ والمسلمين معه ومن حينئذ تكونت أجناد المسلمين ووضعت اللبنة الأولى فى إنشاء العسكرية الإسلامية لمواجهة العدو الكافر وحماية الإسلام.

نص القرآن الكريم على الإذن بالقتال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

---

(١) شمس الدين بن القيم: رسالة الجهاد (مأخوذة من زاد المعاد) ص ١٢: ١٥.

وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الحج].

ثم كان الأمر بالقتال حتى يكون الدين لله ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [سورة البقرة].

انقسم الكفار بعد الأمر بالجهاد إلى ثلاثة أقسام، أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. وقد بينت «سورة براءة» موقف الإسلام من هذه الأقسام الثلاثة، وحددت الأسس التى يعامل وفقها كل فريق.

وأما فيما يتعلق بالمنافقين الذين استمروا على موقفهم من الإسلام فقد أمر الرسول ﷺ أن يقبل منهم ما يعلنون، ويترك سرائرهم وما يخفون إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، كما أمر أن يعرض عنهم وألا يغلظ عليهم فى القول. ووضع القرآن الكريم المنافقين فى موضعهم حين أخبر الله سبحانه وتعالى بأنه لن يغفر لهم.

نظم رسول الله ﷺ أمور الدفاع على هذه الأسس القرآنية، وعليها أرسى قواعد النظم العسكرية وخاصة بعد القضاء على يهود المدينة بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة، واستيلاء المسلمين على رءوس الأموال التى كان اليهود يسخرونها للحرب ضد المسلمين بالإضافة إلى خلو المدينة من دسائسهم ومؤامراتهم ومن ثم أصبحت قاعدة إستراتيجية آمنة يخرج منها المجاهدون بالخطط العسكرية ويعودون إليها ظافرين.

وضع محمد ﷺ الأسس الإستراتيجية التى ميزت النظم العسكرية فى عهده، فيما يمكن استنباطه من النصوص التاريخية التى تقدمها كتب المغازى والسير، كيفية تنظيم صفوف المجاهدين، واتخاذ النبى ﷺ مجلسا لشورى الحرب، وإمرة الجيش، وعقد اللواء والاستطلاع وإرسال العيون، ورسم الخطط العسكرية واستخدام الحرب النفسية والأخذ بأسباب التطور فى التحصين وإشراك النساء فى الجهاد.

أما جيش المسلمين فكان يتكون من المهاجرين والأنصار، وكان تشكيله يتضمن فرق الاستطلاع ومقدمة وقلبا وميمنة وميسرة أو مجنيتين ومؤخرة ثم يأتى النساء بعد ذلك يضربن بالدفوف ويسقين الماء ويضمدن الجراح.

وكان المجاهدون المسلمون متطوعين فى جيش الإسلام يجاهدون فى سبيل الله ليس لهم سوى ما يغنمون من العدو.

وقد كان رسول الله ﷺ يستشير أصحابه وينزل على رأيهم إن كان صوابا ويخبرنا ابن هشام أن رسول الله ﷺ قد أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم القادمة من بلاد الشام، فاستشار الناس، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له به.

واستوثق رسول الله ﷺ من رأى الأنصار حين سألهم: أشيروا علىّ أيها الناس، ويقول ابن إسحق: وإنما يريد الأنصار. وذلك أنهم عدد الناس، عند ذلك رد سعد ابن معاذ فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبُر فى الحرب، صُدق فى اللقاء، لعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه

---

(١) برك الغماد: موضع باليمن، وقيل وهو أقصى حجر باليمن، ابن هشام. سيرة رسول الله، القسم الأول ص ٦١٥. وذكرها ياقوت الحموى فقال: موضع وراء مكة بخمس ليالى مما يلى البحر، وقيل بلد باليمن، دفن عنده عبد الله بن جدعان التميمى، وقيل هو موضع فى أقاصى أرض هجر. معجم البلدان: جـ ١. ص ص ٣٣٩ - ٤٠٠.

ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم[1].

واستمع رسول الله ﷺ إلى الحباب بن المنذر بن الجموح وقد نزل المجاهدون المسلمون ببدر استعدادًا للقاء قريش حين قال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أراكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى. فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلب فغورت، وبنى حوضا على القليب الذى نزل عليه فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.

نعم الرأى أشار به الحباب، فقد أحرز المسلمون نصرًا مؤزرًا على قريش، وكان موقف رسول الله ﷺ مثالا يحتذى وتعليمًا للمسلمين.

وأشار سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنوا له عريشًا يكون فيه وعنده الركائب حماية لنبى المسلمين، فقيل عليه الصلاة والسلام وأثنى عليه ودعا له بخير وبنى العريش وكان فيه رسول الله ﷺ[2].

وشاور رسول الله ﷺ القوم قبل أحد حيث قال لهم: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، واستقر الرأى على الخروج للقاء المشركين عند جبل أحد[3].

وكان رسول الله ﷺ يقود جيش المسلمين، كما كان يعطى القيادة لشباب المسلمين تدريبًا لهم على أعمال القيادة والحرب. وكان يعقد اللواء، وكان صاحب اللواء فى بدر مصعب بن عمير بن هاشم دفعه إليه رسول الله ﷺ وكان أبيض اللون، ومصعب

---

(١) ابن هشام: سيرة رسول الله. القسم الأول ص ٦١٥. وانظر: السهيلى: الروض الأنف. جـ٣ ص ٣٦.

(٢) ابن هشام: سيرة رسول الله. القسم الأول ص ٦٢٠ - ٦٢١.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية. القسم الثانى ص ٦٣.

ابن عمير لقى الشهادة فى أحد، أما رايتا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فكانتا سوداوين، كانت الأولى مع على بن أبى طالب ويقال لها العقاب، والأخرى كانت مع بعض الأنصار[1]. وذكر القلقشندى أن النبى ﷺ فى يوم الفتح ويوم حنين عقد لعمه العباس رضى الله عنه راية سوداء[2].

ووضع رسول الله ﷺ أسس الاستطلاع للمسلمين فقد أدركوا أهمية هذه العملية فى تأمين المجاهدين قبل الدخول فى حرب مع أعدائهم.

يذكر ابن إسحق قصة بسبس بن عمرو وعدى بن أبى الزغباء اللذين أرسلهما رسول الله ليأتيا له بأخبار المشركين قبل بدر، حيث ذهبا إلى قريب من الماء وأخذا شنا لهما يستقيان فيه، وبعض كفار قريش على الماء، فسمع الرجلان حوارًا حادًا بين جاريتين تستقيان الماء، قالت الأولى لصاحبتها وكانت تداينها بدين: إنما يأتى العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك، ورد رجال من قريش أرادوا تهدئة الموقف بينهما وقالوا نعم مؤكدين بذلك صحة ما قالت الجاريتان، وسمع عيون رسول الله ﷺ هذه الأخبار، وعادا مسرعين إليه يخبرانه بنبأ العير القادمة من الشام.

وتحدثنا المصادر عن الخطط العسكرية التى كان يرسمها الرسول ﷺ للمسلمين وكان يؤكد ضرورة الالتزام بها. وقد أظهرت موقعة أحد دقة ما أراده إلا أن الهزيمة حلت بالمسلمين يوم تركوا قمة الجبل سعيًا وراء المغانم فاحتل موقعهم خالد بن الوليد وصوب الرماة نبالهم على المسلمين وكانت نتيجة المعركة فى غير صالح المسلمين، نظرا لعدم التزامهم بخطة الحرب، ومع ذلك فقد تعلم المسلمون درسًا أساسيًا فى الحرب، وهو اتباع الخطة الإستراتيجية التى يرسمها قائدهم.

والحرب النفسية كانت لها فعاليتها فى نفوس المسلمين، وذلك بعد أحد حين خرج رسول الله ﷺ وبعض المسلمين إلى حمراء الأسد[3] على رغم ما بهم من آلام الهزيمة

---

(١) نفس المصدر: القسم الأول ص ٦١، ٦١٣.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٣ ص ٢٧٠.

(٣) حمرا الأسد على مسافة ثمانية أميال من المدينة على يسار القاصد إلى ذى الحليفة، ياقوت الحموى: معجم البلدان: جـ ٢، ص ٣٠١.

ومرارتها حيث عسكروا وأشعلوا النيران حتى يُنزلوا الرعب فى قلوب المشركين، وفيمن خرج مع رسول الله ﷺ نزلت الآيات من القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٧٢].

وكان رسول الله ﷺ يطور فى خططه العسكرية وخاصة فيما يتعلق بالتحصينات، فقد استجاب لنصيحة سلمان الفارسى يوم أشار عليه بحفر الخندق حماية للمدينة ولعرقلة تقدم الأحزاب، وقد نجحت الفكرة عسكريًا، وكانت من العوامل التى أسهمت فى نصر المسلمين فى غزوة الأحزاب.

واشتركت نساء المسلمين فى مساعدة المجاهدين. فمنهم من كن يقمن على سقى الماء، وتضميد الجروح وضرب الدفوف وإعداد الطعام للمجاهدين.

وبلغ عدد المجاهدين يوم بدر ثلاثمائة أو ما يزيد على ذلك بقليل، كانوا كلهم من الرجال وفيهم اثنان من الفرسان وفى أحد بلغ عددهم سبعمائة واثنين من الفرسان. وفى العام الخامس للهجرة ارتفع عدد المجاهدين إلى ثلاثة آلاف وكانت خيلهم ستا وثلاثين فرسًا[1].

كان المسلمون يقاتلون بطريقة الزحف المتراصة. وقد وصفهم القرآن الكريم وصفا دقيقا فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [سورة الصف: الآية ٤]. مما يؤكد إقرار الإسلام لأسلوب القتال الذى اتبعه رسول الله ﷺ والمسلمون معه.

أما عن أسلحة المسلمين فقد كانت السيف والرمح والقوس والسهم والدرع. والسيوف من أشهر الأدوات الحربية عند العرب ومن أحبها إلى نفوسهم. ومن ثم كثرت أسماؤها فى لغتهم وأشعارهم، ومنها الأبيض والمهند والمشرفى والسريجى. والمهند هو السيف المصنوع فى الهند والمشرفى نسبة إلى مشارف الشام وأما السريجى فهو نسبة إلى سريج وهو رجل من بنى أسد كان حدادا اشتهر بصناعة السيوف[2].

---

(١) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص ٦٤.

(٢) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص ٧٦.

وكان الرجالة والفرسان يستخدمون السيوف ويجيدون القتال والمبارزة بها، فقد بارز المسلمون يوم بدر، ويوم أحد، أما يوم بدر فقد تقدم للمبارزة من أشراف قريش عقبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شيبة وكان قبالتهم من الأنصار عوف ومسعود أبناء عفراء وعبد الله بن رواحة فقال رجال قريش: ليبرز أكفاؤنا إلينا فما نعرفكم، فبرز إليهم ثلاثة من بنى هاشم هم على بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث فقتلوا رجال قريش[1].

وذكر الطبرى أسماء سيوف النبى ﷺ قال: حدثنى الحارث قال: حدثنا ابن سعد قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن أبى سبرة عن مروان بن أبى سعيد ابن المعلى قال: أصاب رسول الله ﷺ من سلاح بنى قينقاع ثلاثة أسياف: سيفا قلعيًا[2] وسيفا يدعى بتارا وسيفا يدعى الحتف، كان عنده بعد ذلك المخْذَم ورسوب أصابها من القُلْس[3] كما له سيفان آخران أحدهما يدعى القضيب والآخر يدعى ذو الفقار غنمه يوم بدر وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد وكان لمنبه ابن الحجاج[4].

كما أصاب من سلاح بنى قينقاع أيضا درعين، درع يقال لها السعدية، ودرع يقال لها فضة. وثلاثة أرماح، وثلاث قسى، قوس اسمها الروحاء، وقوس تدعى البيضاء، وثالثة تدعى الصفراء[5].

واستخدم المسلمون الرماح، والرمح عبارة عن قضيب من الخشب ركب فيها سنان الحديد، وللرماح أسماء تعبر عن أنواعها منها صعدة وذلك يقال للرمح المستوى، والعنزة وذلك إذا كان أقصر من العصا وأطول من الرمح، ومنها النيزك والمطرد، ويقال للرمح الطويل السمهرى، وأجود الرماح الصلب المستقيم الذى لا ينثنى، والرماح من الأسلحة التى يستخدمها المشاة والفرسان.

---

(١) الماوردى: الأحكام ص ٣٨.

(٢) نسبة إلى القلعة مكان البادية قرب حلوان تصنع فيه السيوف.

(٣) صنم لبنى طيئ أرسل الرسول ﷺ فى هدمه، وأصاب منه ثلاثة سيوف.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ص ٤٨٦، ٤٨٧.

(٥) انظر ابن سعد: الطبقات ص ٤٨٧.

ومن أسلحة المسلمين القسي وقد اشتهر العرب باستخدامها، ومن أجود أنواعها القسي العصفورية، والقسي الماسخية[1]. وكانت الأقواس تصنع من أخشاب الأشجار، وتستخدم السهام والنبال والنشاب للرمي بها، وظهرت مهارة العرب في الرمي بالنبال في موقعة أحد حيث استطاع خالد بن الوليد حين اعتلى ناصية جبل أحد أن يصيب المسلمين في مقتل يوم صوب إليهم مع رماته سهامهم ونبالهم. واشتهرت الجزيرة العربية بصناعة السهام، والسهام تذكرها المصادر العربية مرادفة للنبل والنشاب، وكانت للسهام سوق بالمسجد في المدينة. وللنبل حافظة تسمى كنانة أو جعبة.

وعرف المسلمون الدروع واستخدموها، والدرع هو القميص الذي يلبسه المحارب، ويصنع من الحديد أو الزرد، والدروع نوعان الأول يصنع من صفائح الحديد والآخر يصنع من حلق متضافر يصمد أمام طعنات السيوف وضربات السهام ويحمي المقاتل. وتنسب الدروع إلى فرعون مصر ومن ثم كانت الدروع الفرعونية، كما تنسب إلى داود عليه السلام، ومن الجدير بالذكر أن اليهود في المدينة اشتهروا بصناعة الأسلحة ومنها الدروع وكانوا يبيعونها للقبائل المختلفة في شبه الجزيرة العربية، وقد أصاب رسول الله ﷺ من دروعهم اثنتين واحدة يقال لها السعدية، والأخرى يقال لها فضة، كما كانت له درع ثالثة يقال لها ذات الفضول[2].

والبيضة من آلات الحرب وهي تشبه الخوذة وتصنع من الحديد وتلبس على الرأس حماية لها من ضربات السيوف، والمغفر وهو من الزرد ويلبس تحت القلنسوة.

وكانت آلات الحصار هي المنجنيقات والعرادات والدبابات فإستخدمها المسلمون في حصار المدن ونقب الأسوار وهدم الحصون، وإن بدت هذه الآلات بدائية إلا إنها أثبتت فاعلية في الحصار والمعارك التي خاضها المسلمون الأوائل في عهد رسول الله ﷺ.

---

(١) العصفورية نسبة إلى صانعها وكان يسمى عصفور. الماسخية نسبة إلى رجل من الأزد اسمه ماسخة.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ١٧٧، ١٧٨. وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٧٨.

وذكـر ابن سـعد وغيره من الكتاب أسماء خيلـه ﷺ ، فقال: كان له فرس يدعى السَّـكْب، وآخر يدعى المرتجز، وثالث يسـمى الورد. وقيل: كان له ثلاثة هى لزاز، والظرب، واللحيف، الأول أهداه له المقوقس، والثانى أهداه له ربيعة بن أبى البراء، والثالث أهداه له فروة بن عمير الجزامى[1].

النظم العسكرية فى عهد الخلافة

اتبع الخلفاء الراشدون السياسية العسكرية التى سار عليها رسول الله ﷺ وأضافوا لها من التطورات والتنظيمات ما رأوه لازمًا للفترة التى تلت عصر النبوة وخاصة أن الفتوحات الإسلامية كانت قد بدأت تأخذ طريقها فى سرعة كبيرة تطلبت من القوة البشرية والمادية ما اسـتطاع خلفاء رسـول الله ﷺ أن يوفروه لها بالإضافة إلى التخطيط العسكرى السليم والمتجدد وفقًا للظروف والميادين التى كانت تحارب فيها أجناد المسلمين.

وكانـت حروب الردة هى التجربة العسـكرية الأولى التى كان على الصديق رضى الله عنه أن يواجهها وأن يضع لها إسـتراتيجية تتفق مع حجم المشـكلة عسكريًا ثم كان على أجناد المسلمين أن تثبت كفاءتها الحربية، وأن تحمى الإسلام وتحافظ على البناء الذى تركه لهم رسول الله ﷺ.

أما من حيث القوة البشـرية، فقد زادت أعـداد المقاتلين الذين قابل بهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه المرتدين فى ذى القصة فبلغ عددهم أربعة آلاف. هذا بالإضافة إلى الأعداد الأخرى التى شكلت الأجناد الأحد عشر التى كلفت بالقضاء على المرتدين فى شبه الجزيرة العربية. ويبدو أن جيش المسلمين كان قد وصل عدده إلى عشرة آلاف فارس بالإضافة إلى المشاة الذين تذكرهم المصادر بأنهم كانوا عشرين ألفًا[2].

وبعد القضاء على المرتدين فى شـبه الجزيرة العربية واسـتعادة وحدتها السياسية بدأ الصديق رضى الله عنه فى إعداد خطة الفتوحات الإسلامية التى كانت نواتها قد وضعت فى عهد النبوة.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى. جـ ١ ص ٤٩٠.

(٢) انظر أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص ٦٤ وما بعدها.

سارت أجناد المسلمين المنتصرة فى حرب الردة إلى العراق وإلى بلاد الشام بتنظيمات عسكرية واضحة. وكان الصديق رضى الله عنه قد وضع على كل جند من أجناد المسلمين قائدًا، وأوصاه بجند المسلمين خيرًا، كما أوصاه بأهل البلاد المفتوحة خيرا.

وضع المسلمون فى اعتبارهم أنهم سيلاقون القوات الفارسية والجيوش البيزنطية بنظمها وتقاليدها العسكرية، وأسلحتها المتطورة بالنسبة إلى ما كان لديهم من أسلحة حربية. وأصدر الصديق رضى الله عنه أوامره إلى قواد الأجناد بالبدء فى تنفيذ خطة الفتح سواء فيما يتعلق بالعراق أم ببلاد الشام. كان خالد بن الوليد القائد العام للأجناد وتوجه فى جند المسلمين بعد أن شيعهم خليفة رسول الله ﷺ وتوجه الجيش الفاتح إلى الحيرة. وكان خالد بن الوليد قد قسم أجناده إلى ثلاثة أقسام وأمرهم ألا يسيروا فى طريق واحدة، وأن يكون مكان التجمع فى الحفير من الحيرة. وهذه الطريقة تبين حرص خالد بن الوليد على جند المسلمين والتمويه على أعدائهم حتى لا يعرفوا الوجهة الحقيقية التى تقصدها الأجناد. واتبع القواد الأسلوب الذى أمر به النبى ﷺ فى مخاطبة أهل البلاد، ودعوتهم إلى الإسلام فإن أجابوا فبها، وإلا طلبوا إليهم أن يدفعوا الجزية فإن قبلوا قبلها منهم المسلمون وحقنوا بها دماءهم، وإن رفضوا كان ذلك سببًا فى إعلان الحرب عليهم حتى يكون الدين كله لله.

ويذكر الطبرى: أن القواد الذين خرجوا تحت إمرة خالد القائد العام كانوا أربعة: هم المثنى بن حارثة وحرملة وسلمى ومذعور، وأن عدد المقاتلين الذين خرجوا تحت إمرتهم بلغوا ثمانية آلاف بالإضافة إلى عشرة آلاف كانوا مع خالد بن الوليد. وبذلك يكون مجموعة الأجناد الذين لقوا الفرس ثمانية عشر ألف مقاتل من المتطوعة[1].

وأرسل خليفة المسلمين جيوشه أيضًا إلى بلاد الشام، وذلك استكمالا لما كان رسول الله ﷺ قد بدأه، وكان قادة الفتح أربعة: هم عمرو بن العاص، ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح، وعين أبو عبيدة قائدًا عامًا لأجناد الشام.

---

(١) انظر الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص ٣٤٧.
وقارن: فتحية النبراوى. دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين ص ٧٤.
أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص ١٧٧ وما بعدها وقارن أيضًا ص ٢١٠.

وقد كانت عدة هذه الأجناد مجتمعة سبعة وعشرين ألف مقاتل ثم انضم إليهم خالد من العراق بجنوده فصار عددهم ستة وثلاثين ألفا، وكان على هذه الأجناد مواجهة جيش الروم الذى قدرته المصادر العربية بمائتين وأربعين ألف مقاتل منهم ثمانون ألف مقيد، أربعون ألفا منهم مسلسل للموت، وأربعون ألفا مربوطون بالعمائم وثمانون ألف فارس وثمانون ألف راجل[1].

كانت هذه أجناد المسلمين منتشرة فى العراق والشام ظافرة على جيوش الفرس والروم، وينتقل خليفة رسول الله إلى رحاب الله، ويتولى عمر بن الخطاب خلافة المسلمين ليتابع المسيرة ويحقق للإسلام أعظم نصر على أقوى جيشين من جيوش العالم القديم.

وكانت أهم التنظيمات العسكرية فى عهده أن أنشأ للجند ديوانًا يهتم بأمورهم وأحوالهم وأسرهم وعيالهم، وقد بلغ عدد الجند المنضمين إلى ديوان الجند فى عهد عمر مائة وخمسين ألفًا، وهؤلاء ممن تنطبق عليهم شروط الانخراط فى ديوان الجند ويخضعون للالتزامات التى قررها الفاروق، فمن ينتظم فى ديوان الجند عليه التفرغ التام للجندية، وعدم احتراف أية مهنة أخرى، وكل هؤلاء أيضًا كانوا حتى ذلك الحين من القبائل العربية.

وأما أسلحة الجيش وأدواته وخططه فقد كانت إلى حد كبير مثل ما كانت عليه فى عهد النبوة إلا أن الأعداد ازدادت بشكل ملحوظ، ولعبت الإبل والخيل دورًا هامًا فى حروب المسلمين مع الفرس والبيزنطيين. وأدخل القواد المسلمون التطور الملائم الذى أملته الظروف العسكرية التى عايشوها بالمقارنة مع ما واجهوا من جيوش عسكرية مدربة.

وقد استطاعت الأجناد الإسلامية أن تحرز انتصارات مؤزرة، ففى الشام كانت انتصاراتهم على الروم فى موقعة اليرموك التى تعد إحدى المعارك الفاصلة فى تاريخ الحروب، وفى العراق كان انتصارهم فى القادسية على قوات الفرس، تلك الانتصارات التى فتحت أمامهم الطريق إلى عاصمة الإمبراطورية الفارسية.

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك. جـ ٣ ص ٣٩٤.

وورث الأمويون النظم العسكرية التى وضعها المسلمون فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، وأضافوا إليها ما استطاعوا استيعابه وما تأثروا به من النظم العسكرية البيزنطية التى عاصروها فى بلاد الشام مما يتلاءم مع النظم العسكرية الإسلامية.

وقد اهتم الأمويون اهتماما كبيرا بالجيوش الإسلامية التى كانت تتألف من العرب وحافظوا على القواعد التى وضعها الفاروق للجندية والديوان، وزادوا فى أعطياتهم وذلك للواجبات الضخمة التى كان على الجيش الأموى الاضطلاع بها؛ ذلك أنه كان على الجيوش الأموية مواجهة الفتن والثورات الداخلية وتهدئة الأقاليم بالإضافة إلى حماية أطراف الدولة وثغورها المتاخمة للعدو، كل ذلك وضع أعباء مالية على ميزانية الدولة التى تحملتها راضية فى سبيل إقرار الأمن فى الداخل وحماية أطراف الدولة ورد كيد العدو عن حدودها.

وشهدت النظم العسكرية تطورات هامة فى العصر العباسى وخاصة بعد أن تخلى الخلفاء عن قاعدة أساسية فى تكوين الجيوش الإسلامية فى أن تقوم أساسا على العرب وأباحوا للعناصر غير العربية الدخول فى الجندية. وقد كان لدخول الأتراك فى الجيوش الإسلامية أثره فى نسيج تلك الجيوش إذ ثار العرب على هذه السياسة وخاصة فى بلاد الشام[1].

ولم يقتصر الخلفاء العباسيون فى استخدامهم للأعاجم فى الجيش على الأتراك بل جلبوا المغاربة والسودان والتركمان وغيرهم من العناصر غير العربية إلى الجيش. وفى منتصف القرن الرابع الهجرى كان الجيش العباسى يتألف من العرب والأتراك والديلم والأكراد وغيرهم من الجنود المجلوبة.

وعلى الرغم من هذه التغييرات التى شهدتها الجندية الإسلامية إلا أن التشكيل الأساسى للجيش لم يبعد كثيرًا عن التشكيل الأول فى عهد النبوة والخلافة الراشدة والذى كان يتمثل فى المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والمؤخرة.

---

(١) انظر: فاروق عمر: الخلافة العباسية فى عهد الفوضى العسكرية ص ٣٩.

النظم العسكرية فى الأقاليم

شـهدت أقاليم الدولة الإسلامية نظمًا عسـكرية ارتبطت بالعناصر البشرية والأسر الحاكمة التى سـيطرت على تلك الأقاليم، ففى المشـرق الإسـلامى كان للسـلاجقة دورهـم الهـام فى صقـل النظم العسـكرية، وصبغها بصبغة ميزتهـا على غيرها من النظـم، ولاشـك أن الإقطاع الحربى كان إحدى السـمات الهامـة التى ميزت النظم العسكرية السلجوقية.

وانتقلت النظم العسـكرية السـلجوقية إلى بلاد الشـام والعـراق وتأصلت فى ظل الأتابكة وخاصة فى عهد نور الدين محمود، وقد تأثر صلاح الدين الأيوبى بتلك النظم التى نشـأ وتربى فى كنفها فنقلها إلى مصر وصاغ منها ما وجد من نظم عسـكرية من وضع الفاطميين النظم العسكرية الخاصة بالأيوبيين.

اعتمد الفاطميون فى تكوين جيوشهم على الجند المرتزقة من المغاربة والصقالبة والسـودان والأرمـن. وقد قضى صـلاح الدين تدريجيا على تلـك العناصر إلى أن تخلص منها نهائيًا واسـتخدم الأكراد والترك فى جيشـه وأقطعهم الإقطاعات، وبهـذا يكون الجيش الأيوبى مكونًا من نوعين أساسـيين مـن المحاربين، النوع الأول وهم أصحاب الإقطاعات وهم الركيزة الأساسـية للجيش ويسـمون الجيش النظامـى، أما النـوع الثانـى فتمثلـه الجنـد المرتزقـة ويتعاطون أجرهـم نقدًا ولمدة معينة.

وكان الجند فى عصر الأيوبين ينقسمون إلى مماليك سلطانية وأجناد للحلقة وجند الأمراء، كما عرفت فى هذا العصر أيضًا طائفة البحرية[1].

واهتـم الأيوبيـون بالجيش اهتمامًـا كبيرًا فيذكـر ابن الأثير: أن صـلاح الدين اسـتطاع أن يعبـئ جيشًـا بلغت عدته اثنى عشـر ألف فارس ممـن له الإقطاع والجامكية سـوى المتطوعة[2] وكان توزيع هذه الأجنـاد كالتالى: ألف من حرس صلاح الدين الخاص، وثلاثة آلاف من عسـكر مصر، وألف من عسـاكر دمشق،

(١) د. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ ١ ص ٣٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ ١ ص ٥٣١.

وألفان من عسكر حلب وشمال سورية، وخمسة آلاف من عساكر الموصل وديار بكر وشمال العراق[1].

كذلك اهتم الأيوبيون بمرتبات الجند وإقطاعاتهم، فيذكر ابن معاتى إقطاعات الجند فى عصر الأيوبيين يقول: إن الأجناد من الأتراك والأكراد والتركمان دينارهم الإقطاعى، دينار واحد كامل جيد، والكنانية والعساقلة ومن يجرى فى مجراهم على عادة الأجناد المصريين نصف دينار، والغزاة والقواد ومن هم فى معناهم ربع دينار، والعربان دينارهم ثمن دينار[2].

كما اشتركت قبائل البدو فى تشكيل جيش صلاح الدين وانتظموا فى ذلك الجيش كفرسان بالإضافة إلى عملهم كأدلاء للجيش نتيجة خبرتهم ودرايتهم بالطرق والمسالك مما له أهمية عظمى فى الحروب، كما كان البدو يقومون بالغارات المفاجئة والهجوم الخاطف على أراضى الصليبيين وقراهم ومزارعهم.

وكان لبنى منقذ وبنى كنانة دور هام فى هذا المضمار، وتذكر المصادر العربية هذا الدور مشيدة به، إلا إنه تجب الإشارة إلى أن قبائل أخرى خانت صلاح الدين وقدمت المعونة والمساعدة لأعداء المسلمين، منها بنى جذام وبنى ثعلبة[3].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن تشكيل جيش صلاح الدين على النحو الذى تقدم يعكس الإستراتيجية فى المنطقة التى تمثلت فى توحيد صفوف المسلمين وتجنيد الطاقات البشرية والاقتصادية لخدمة القضية الكبرى فى ذلك الوقت وهى قضية إحياء الجهاد واسترداد الأراضى الإسلامية من أيدى الصليبيين.

وقد حافظ الأيوبيون على هذه القوة العسكرية وعملوا على تطوير أسلحتها ومعداتها لمجابهة الأخطار التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى آنئذ، فقد واجهت مصر حملتين صليبيتين هما الحملتان الخامسة والسابعة، بالإضافة

---

(١) H.A.E. Gibb, The Armies of Saladin: Studies on Isamic Civilization PP. 74 - 90
وانظر: نظير حسان سعداوى: جيش مصر فى أيام صلاح الدين: ص ١٠.

(٢) ابن معاتى: قوانين الدواوين ص ٣٦٩.

(٣) نظير حسان سعداوى: جيش مصر أيام صلاح الدين. ص ١٤.

إلى تفاقم الخطر المغولى الذى هدد الشرق وامتد إلى حدود الخلافة الإسلامية فى بغداد.

ويورد القلقشندى وصفا لبيت السلاح أو السلاح خاناه أو الزرد خاناه التى احتوت على أنواع الأسلحة من السيوف والقسى العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر[1]. ويذكر أيضًا أن صناعا مقيمين بدار السلاح كانوا يقومون على إصلاح العدد وتجديد المستعملات ويسمون بالزردكاشية[2].

وأولى المماليك عنايتهم الفائقة للجيش فقد كان على عاتقهم استكمال الجهاد، والصمود أمام الأخطار التى هددت العالم الإسلامى وحماية مقدسات المسلمين.

ويمدنا القلقشندى بمعلومات قيمة عن أرباب السيوف فى دولة المماليك، فيذكر أن طبقة أرباب السيوف على نوعين: الأول ويمثل الأمراء والنوع الثانى يمثل الأجناد.

أما الأمراء فكانوا على أربع طبقات، الطبقة الأولى وهم أمراء المئين مقدمو الآلاف وعدة كل منهم مائة فارس. والطبقة الثانية وهم الطلبخاناة وعدة كل منهم فى الغالب أربعون فارسًا، وقيل: قد يزيد هذا العدد إلى سبعين أو ثمانين لكنه لا يقل عن أربعين فارسًا. أما الطبقة الثالثة فهى طبقة أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فوارس، والطبقة الرابعة هى طبقة أمراء الخمسة وهؤلاء يمثلون أكابر الأجناد وكانوا قلة فى مصر[3].

وأما الأجناد فهم على طبقتين الأولى طبقة المماليك السلطانية، وهم أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدهم إلى السلطان قربًا، وأوفرهم إقطاعًا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة.

---

(١) القرقلات: نوع من الثياب، وربما كانت قمصانا يلبسها الجنود لحمايتهم.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٤ ص ص ١١، ١٢. وانظر حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ ١ ص ٣٦٥.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٤ ص ١٤. وقارن: المقريزى: الخطط. جـ ٢ ص ٢١٦.

أما الطبقة الثانية فهى طبقة أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كى لا يحاط بعدته ويطلع إليه ولكل أربعين نفسًا منهم مقدم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وترتيبهم فى موقفهم إليه[1].

ويذكر القلقشندى أيضًا من الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان فى السفر كالحرس، وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم الملك الصالح نجم الدين أيوب[2].

ويخبرنا المقريزى أن مناشير الأمراء تكون من السلطان كذلك مناشير جند الحلقة، بينما تكون مناشير جند الأمراء من الأمراء، والأمير هنا هو أمير الإقطاع، وله ثلث الإقطاع ولجنده الثلثان، ولا يمكن للأمير ولا مباشريه أن يشاركوا الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم[3].

وكان بقلعة الجبل مكان معد لديوان الجيش، وكان ناظر الجيش وسائر كتاب الجيش لا يبرحون فى أيام الخدمة نهارهم مقيمين بديوان الجيش واستحدث المماليك أيضًا ديوان الإقطاع.

ويروى المقريزى أنه كانت للأمراء على السلطان فى كل سنة ملابس ينعم بها عليهم، ولهم فى ذلك حظ وافر، وينعم على أمراء المئين بخيول مسرجة ملجمة ومن عداهم بخيول عرى، ويميز خاصتهم على عامتهم، وكان لجميع الأمراء من المئين والطبلخاناه والعشرات على السلطان الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله والخبز والشعير لعليق الخيل والزيت ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة، وكذلك لجميع مماليك السلطان وذوى الوظائف من الجند[4].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ص ١٥، ١٦.

(٢) القلقشندى: المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها.

(٤) المقريزى: المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢١٦.

وكان السلطان يوزع الخيول على أمرائه مرتين فى العام كما كان يعطى من نفق فرسه بديلا عنه شريطة أن يحضر من لحمه ويشهد على ذلك.

وفى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون بلغت عدة جيوش مصر أربعة وعشرين ألف فارس مفصلة كالتالى: ألفان وأربعمائة وعشرون فارسًا لأمراء الألوف ومماليكهم، مقدمو الحلقة الأجناد أحد عشر ألف ومائة وستة وسبعون، مماليك السلطان ألفان، وأجناد الحلقة ثمانية آلاف وتسعمائة وثلاثون فارسًا[1].

ومهما يكن من أمر فإن لجيوش الإسلام دورًا مشهودًا فى مواجهة الأخطار التى تهددت الدولة الإسلامية، كما كان لهم دور مشهود فى نشر الإسلام فى المشارق والمغارب مؤكدين بذلك قدرتهم الفائقة على التصدى لأعداء الدين وحماية الإسلام والمسلمين.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢١٧، ٢١٨.